ذكر أخبار الدولة الأيوبية

وهي دولة السّلطان الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف بن أيوب وأولاده، ودولة أخيه الملك العّادل سيف الدّين أبو بكر وأولاده، رحمهم الله تعالى.

ولْنَبدأ بذكر نَسَب نجم الدين أيوب والد ملوك الدّولة الأيُّوبية وابتداءِ حالهِ وحالِ أخيه أسد الدّين، وكيف تنقّلتْ بهم الحال إلى أن ملك أسدُ الدّين شيركوه الدّيارَ المصريّة، وكيف انتقل الملك بعده إلى ابن أخيه الملك النّاصر صلاح الدّين يوسُف. ثمّ نذكر أخبار مَنْ ملك مِن أولاده وأخيه الملك العادل وأولاده في حَرْبهم وسَلْمهم إلى حين انقراض دولتهم. وبالله التوفيق.

ذكر نسب الملك الأفضل نجم الدّين

هو أبو سعيد أيوب بن شادي بن مروان. هذا هو المقطوعُ به الذي لانزاعَ فيه، ولاخلاف بين أحد من المؤرخين ونَقَلة أخبارهم.

وقال الملك الأمجد مجدُ الدّين أبو محمد الحسَن، ابن السلطان الملك النّاصر صلاح الدين أبي المفاخر داود، ابن السلطان الملك المعظم شرف الدّين أبي المظفر عيسى، ابن السلطان الملك العادل سيف الدّين أبي بكر محمد، ابن الملك الأفضل نجم الدّين أبي سعيد أيوب، رحمهم الله تعالى، في كتابه المتَرْجم بالفوائد الجليّة في الفرائد الناصرية: سمعتُ مَن يقول: مروان بن محمد؛ وقال بعض النّاس محمد بن يعقوب.

وقال شهابُ الدين أبو شامة عبد الرحمن في كتابه المترجم بالرّوضَتَين في أخبار الدّولتين سمعتُ مَن يقولُ: مروان بن يعقوب.

وقال الملك الأمجد: وقد اختُلِف في نسبهم على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ماقاله عز الدّين علي بن الأثير الجزَري أنّ نجم الدين أيوب من بلد دوين من أذربيجان، وأصله من الأكراد الرَّوَاديّة:وهذا القبيل هم أشَرف الأكراد.

قال الملك المجاهد:وهذا شيء يجري على ألسنة كثير من النّاس، ولم أرَ أحداً ممن أدركه من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النّسب، لكنهم لاينكرون أن نجم الدّين كان بدوين.

قال: والمشهور عند بَيْتنا أنّ جدنا نزل على الأكراد وتزوَّج منهم، فصارت بيننا وبينهم خؤولة لاغيرُ، ويدلّ على ذلك أن السلطان الملك الناصر صلاح الدّين يوسف لّما ملك البلاد تقدم في دَوْلته جماعةٌ من الأكراد، فلم يبق أحدٌ منهم إلا جاء بنُو عمهُ وأقاربُه، حتى صار في عُصْبةٍ من أهله: والسّلطان رحمه الله لم يأتِ إليه من يمت بقرابة إلا من جهة النّساء فقط؛ ولوكان من الرَّوَادِيّة لكان جميعُ القبيلة أولاد عمه، وإن لم يكُنْ له ابن عمّ قريب فيكون ابنَ عمٍّ بعيد قطعاً لأن القبيلة كلّها أولاد رجل واحد، ولاشّك أنّ الدّواعي تتوفر على الانتماء إلى الملك مالاتتوفر على الانتماء إلى الأمراء.

القول الثاني: أنهم من أولاد مروان بن محمد الأموي، آخر خلفاء الدولة الأموية.

قال الملكُ الأمجد: وهذا شيء ادَّعاه الملك المعز فتح الدين أبو الفداء اسماعيل بن الملك العزيز ظهير الدين أبي الفوارس سيف الإسلام طغتكين بن أيوب باليمن، لما ملكه بعد أبيه، وتلقّب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين. وقال يحيى بن حميدة ابن أبي طّي: قد

نقبت عن ذلك فأجمع الجماعة من بني أيوب على أنهم لايعرفون جداً فوق شادي.

القول الثالث: ماذكره حسن بن عمران الجرشي، فإنه جاء إلى الملك المعظم وعمل شجرة لنسب بني أيوب، فوصله بعليّ بن أحمد المرّي، ممدوح أبي الطيب المتنبي الذي يقول فيه:

شرق الجوُّ بالغُبار إذ سا ... ر علي بن أحمد القمقام

وقال أيضاً في مدحه:

إنما ابن عوف بن سعيد ... جمرات لاتشتهيها النعام

ولم ينكر الملك المعظم عليه ذلك بل قَبِل منه.

قال: وهذا سَردُ النّسب الذي عَمِله الجرشي، وهو أيوب بن شادي ابن مروان بن أبي علي.

قال الملك الأمجد: قلت: ويُحتمل أن يكون أبو علي هذا هو محمد المقدم ذكره—وأبو علي كنية له— ابن عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد ابن أبي علي بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سفيان ابن عمرو بن مرة بن شبة بن غيظ بن مُرَّة بن عوف بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النّضر بن كنانه بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وبقية النسب معروف، هذا ما قيل في نسبه. وأما ابتداء حاله:

ذكر ابتداء حال الملك الأفضل نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه

قال المؤرخ: قدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدّين شيركوه من بلد دوين إلى العراق في خلافة المسترشد بالله، وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد، فرأى من نجم الدّين عقلاً ورأيا وحُسن سيرة، وكان أَسَنَّ من أخيه أسد الدين، فجعله مجاهد الدين دُزْداراً بقلعة تكْريت، وكانت له، فسار إليها ومعه أسد الدّين.

وقيل بل كان نجمُ الدين قد خدم السّلطان محمد بن ملكشاه السّلجقي، فرأى منه أمانةً وعقلاً، وسداداً وشهامة، فولاّه قلعة تكريت، فقام بها أحسن قيام، فلّما وَلي السلطان مسعود أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز، فأقرّ نجمَ الدين في الولاية، وكان أتابك عماد الدّين زنكي بن آق سنقر، والد السلطان الشهيد نور الدّين لّما انهزم من قراجا السّاقي في سنة ست وعشرين وخمسمائة، كما ذكرناه، بلغت به الهزيمة إلى تكريت، فقام نجم الدين بخدمته أتم قيام، وأقام له السّفن إلى أن عَبَر دجلة، فكان سبب وُصلته بالبَيت الأتابكي وتقدمه.

قال: ثمّ اتفق بين أسد ا لدين وبين قوارص النّصراني، كاتب بهروز، مشاجرةٌ في بعض الأيام، فكلّمه النصراني بكلمةٍ أمضته، فضربَ عُنقه بيده، ورماه برجله فلّما اتصل الخبر ببهروز، وحضر عنده مَنْ حذّره من جُرأة شيركوه وتمكين نجم الدّين واستحوازه على قُلوب الرّعايا، خافَ عاقبةَ ذلك، وكتب بالإنكار عليه بسبب ماكان من أخيه، وعَزَله. فسار نجمُ الدّين أيوب وشيركوه إلى عماد الدين زنكي في الموصل، فلّما وصلا إليه سُرَّ بهما وأحسن إليهما، فأقطعهما الإقطاعات الجليلة، وشهدَا معهُ حُروب الكفار، وقتال الفرنج.

فلّما ملَك زنكـي قلعة بعلبك، في سنـة ثلاث وثـلاثين وخمسمائة جعل نجم الـدّين دُزْدَاراً بها؛ فـأقام بها إلى أن قُتل عماد الـدين زنكـي، في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وحَاصَر معينُ الدّين أنـر، صاحب دمشق قلعةَ بعلبك، حتـى ضاق الأمر على نجـم الدّيـن، فاضْطر إلى تَسليمهـا إليه، وتعوَّض عنهـا إقطاعاً وأمـلاكاً؛ وكان عندَهُ مـن الأكابر الأمـراء، واتصل أسد الـدين شيركوه بخـدمة الملك العـادل نُور الـدين محمود بـن زنكي، فجعله مقدماً على عسكره، وجعل له حمص والرّحبة وغيرهما.

فلما تعلقت همّة تـور الدّين بمُلـك دمشق أمر اسـد الدين بمكـاتبة أخيه نجـم الديـن أيوب في ذلـك، فرَاسَله، فـأعان نـور الدّيـن على فتح دمشق؛ فعظـم محلُّهُمَا عند نور الـدّين، فكان نجـم الدين إذا دخـل عليه جلس مـن غير أن يُؤذَن لـه في الجلُوس، ولم تكـن هذه الـرُّتبة لغيره مـن سَائر الأمراء. فلّما كان من أمر شاوَر ما قـدّمناه، وقصَد نورَ الدّين محموداً واستغاث بـه،أرسل معـه أسد الـدّين بـالعساكـر؛ وكان مـن أمره في المرّة الأولى، في سنـة تسـع وخمسين وخمسمائة، والمرّة الثـانيـة، في سنـة اثنتين وستين، والمرة الثالثة في سنة أربع وستين وخمسمائة مـاقدّمنا ذكره في أخبار الدّولة العُبيْديّة في أيام العاضد لدين الله.

ذكر وزارة الملك المنصور أسد الدّين شيركوه بالدّيار المصرية ووفاته

كـانت وزارتُـه للعـاضد لـدين الله في يـوم السبـت لثلاث عشرة ليلـة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة.

وذلك أنه لما كان من أمر شاور ومقتله مـاذكرناه آنفاً استَدْعى العاضدُ لديـن الله أسدَ الدّيـن شيركوه، فدخـل إلى القاهـرة في السّاعة التـي قُتِل

فيها شاوَر، فرأى من اجتماع العوام مـاهَالَهُ، فخاف على نفسه، فقال لهم: أميرُ المؤمنين يأمُـركم بنهب دارِ شـاور، فقصدَهَا النّـاس ونهبوها، وتفـرّقوا عنه، ولمّا نـزل أسدَ الـدّين بـدَارِ شاوَر، وهـي دارُ الوزارة، لم يجد فيهـا ما يجلس عليه.

قال:ولمَّا تفرق الناس للنهب دخل أسد الـدّين على العاضد لدين الله، فتلقاه وخلع عليه خلع الوزارة، ولقّبه بـالملك المنصور أمير الجيـوش، وكتب له تقليدَ الـوزارة، وكتب عليه العاضـد بخطه هذا: «عهدٌ لم يعهـد لوزير بمثله، وتـقليدُ أمرٍ رآك أمير المؤمنين أهـلاً لحمله. والحجة عليك عند الله بما أوضحـه لـك مـن مَـرَاشِـنـد سُبُلـه، فخـذ كتـاب أمير المؤمنين بقُـوّة، واسحـب ذيل الفخـار بـأن اعْتززت بخـدمتـك مـن النبوة؛ واتّخذ الفـوزَ سبيـلا(ولاتَنْقُضُـوا الأيمَانَ بَعْـدَ تَـوْكِيـدِهَـا وقَـدْ جَعَلْتُـم الله علَيْكُـمْ كَفِيلاً)(النحل٩١).

وخـرجَ مـن عند العَـاضـد وركـب إلى دار الوزارة وسكنهـا، واستقـلّ بالأمـر، واستعمل على الأعْمال مـن يثقُ بـه من كُفـاة أصحابـه، وأقْطع البلاد لعساكـره، وأرْسَل إلى ديوان الإنشاء بالقصر يطلُـب من يكتب بين يديه، فـأرسل إليه متولي الديـوان القاضي الفاضل عبد الـرحيم البَيْسَاني؛ وظَن رؤساء ديوان المكـاتبات أنّ هذا الأمر لايتم، وأن أسد الـدّين يُقْتل عن قريب كما قُتِـل غيره، فأرسلوا إليه القاضي الفاضل وقـالوا لعلّه يُقتل معه. فكان من أمره ماكان.

ولم تطُلْ مدّة أسد الـدّين في الوزارة بل انقَضَتْ أيامُـه، وفاجأه حمامه، فتوفي في يوم السّبت لثمانٍ بقين من جمادى الآخرة من السّنة.

واختلف في سبـب وفاته، فقِيل إنَّـه مات فجأةً، وقيل بعلّـة الخوانيق، وقيل بل سُمَّ، فكـانت مدّةُ وزارته خمساً وستين يوماً، وعُمـل عزاؤه ثلاثة

أيام، وحمل إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصّلاةوالسلام؛ ودُفن هناك برباط الوزير جمال الدّين وزير الموصل.

ولمّا مات أسـد الدّيـن شيركوه استقـرّ في الوزارة بعْـدَه الملك النّـاصر صلاح الدين يُوسف بن أيوب.

obeikandl.com

ذكر أخبار الملك النّاصر صلاح الدين يوسف ابن الملك الأفضل نجم الدّين أيّوب ووزارته بالدّيار المصريّة

كانت وزارته بالدّيار المصرية عقب وفاة عمّه الملك المنصور أسد الدين شيركوه، وقد تطاول جماعةٌ من الأمراء النّورية للوزارة؛ منهم عين الدولة اليَارُوقي، وقطب الدّين قايماز، وسيف الدّين المشطوب الهكاري، وشهاب الدّين محمُود الحَارمي، وهو خال صلاح الدين؛ وخطبها كلٌّ منهم لنفسه، فأشار جماعةٌ من المصريين وخواصِّ العاضد لدين الله على العاضد أنْ يولِّي صلاحَ الدّين وقالوا: إنه أصغر الجماعة سناً، ولايخرُج من تَحْتِ أمر أمير المؤمنين، فإذا استقرَّ وضَعْنا على العساكر مَن يَسْتميلهم إلينا، فيبقى عندنا من الجُند مَنْ نتقوى به، ثم نأخذ يوسُف بعد ذلك أو نخرجُه فإنّ أمره أسهل من غيره، فاستدعاهُ الملك العاضدُ لدين الله، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة. ولقّبه بالملك النّاصر، فلم يُطعْه أحدٌ من الأمراء الذين كانوا تطاوَلوا للوزارة ولاخدموه.

وكان الفقيه عيسى الهكاري معه، فسعَى مع الأمير سيف الدين علي ابن أحمد المشطوب حتى استمالَه إليه، وقال له: إنّ هٰذا الأمر لايصل إليك مع اليَاروقي والحارمي وغيرهما، ثمّ اجتمع بالحارمي وقال له مثل ذلك، وقال له: إن صلاح الدين ولد أختك، وعزُّه وملكه لك، وقد استقام لهُ الأمر، فلا تكُنْ أوّل من سعى في إخراج الأمر عنه. واجتمع بالأمراء واستمالهم، فأطاعه بعضهم وعصى بعضهم.

فأمّا اليَاروقي فإنه قال: لاأخدُم يوسف أبداً، وعاد إلى الملك العادل نور الدّين هو وجماعة من الأمراء، وصار صلاح الدين نائباً عن الملك العادلِ نور الدّين، والخطبة لنور الدّين ولايكاتبه إلا «الأمير الاسفهسلار

صلاح الدّين وكافة الأمراء بالدّيار المصرية. يفعلون كذا وكذا».. ويضع علامته في الكُتُب، عظمة أن يكتب اسمه.

ولمّا وزَر صلاح الدين ثبت قدمه، واستمال قُلوب الناس بالأموال فمالوا إليه فقوي أمره، وضعف أمر العاضد.

ذكر مقتل مؤتمن الخلافة جوهر، زمام القصور وانتقال وظيفته إلى قراقوش الأسدي وحرب السودان

كان مقتل مؤتمن الخلافة في يوم الأربعاء لخمسٍ بقين من ذي القعدة، من سنة أربع وستين وخمسمائة.

وسبب ذلك أن الملك الناصر شرع في نقض إقطاع المصريين، فاتفق هذا الخادمُ مع جماعةٍ من الأمراء المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى الديار المصرية، والاعتضاد بهم على صلاح الدين ومَنْ معه؛ وأرْسَل الكتب مع إنسان، فجعلها في نعلٍ ولبسه، وسار على أنه فقير رثُ الهيئة، فلما وصل إلى الْبيْضاءَ وجده تركمانياً، فأنكر حاله إذ هو رثُّ الهيئة جديد المداس، فأخذ مدَاسَه وفتقه، فوجد الكتب فيه، فحمله بها إلى الملك الناصر، فوقف عليها، وكتم الأمر، وقرَّر الرجل بالعقوبة، فأقَرّ أنّ الكتب بخط رجلٍ يهودي، فاستحضره، فأقر بها، ثم قتل صلاح الدّين القاصد، واستشعر مؤتمن الخلافة من الملك النّاصر، فلزم القصور واحترز على نفسه، فكان لايخرج منها. فلمّا طال ذلك عليه خرج في هذا اليوم لقصر له بالخرقانيَّة، فأرسل إليه الملكُ النّاصر جماعة فقتلوه، وأتوه برأسه، فرتَّب حينئذٍ على أزمَّةالقصور قراقوش الخصي، وكان من مماليك عمّه أسد الدين ليطالعه بما يتجدد بالقصور.

قال: ولما قتل مؤتمن الخلافة ثار السّودان لذلك وأخذتهم الحميّة، وعظُم عليهم قتلهُ، لأنه كان رأسهم ورئيسهم، فحشدوا واجتمعوا، فزادت عدّتهم على خمسين ألف عبد؛ وكانوا أشد على الوزراء من العسكر، فندب الملك الناصر العسكر لقتالهم، وقدّم على العسكر أبا الهيجاء السّمين؛ فالتقوا بين القصْرَين واقتتلوا، فقتل من الفريقين جمع كثير، فلمّا رأى ا لملك الناصر قوتهم وشدّة بأسِهم أرسل إلى محلّتهم المعروفة بالمنصورة، خارج باب زويلة، فأحرقها؛ فاتصل ذلك بهم، فضعُفَت نفُوسهم، فانهزموا إلى محلّتهم فوجدوا النّيران تُضْرم فيها. واتبعهم العسكر فمنعهم من إطفائها، ودام [القتال] بينهم أربعة أيّام، نهاراً وليلاً، إلى يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة؛ فخرجُوا بأجمعهم إلى الجيزة وقد أيقنوا بالهلاك، وخرج إليهم تورانشاه أخو الملك الناصر فقتلهم، ولم يَنْجُ منهم إلا اليسير، وكتب الملك الناصر إلى وُلاة البلاد بقَتْلِ من يجدونه منهم، فقتلوا من عند آخرهم.

وبقي الملك الناصر يخشى من أهل القصر لِمَا فعله بمؤتمن الخلافة جوهر، فكان جوهر هذا سبب زوال مُلك الدّولة العُبَيدية، وجوهر القائد سبب مُلك المعزّ للبلاد؛ فَشتّان بين الجوهرين.

ذكر الحوادث في الأيام النّاصريّة غير الفتوحات والغزوات

لم نقدِّم هذه الحوادث التي نذكرها الآن على الغزوات والفتوحات إلا أنها سابقة على ذلك في التاريخ، ولأنا أردنا أنْ نُفردَ غزواته وفتوحاته ليأتي الكلاُم عليها سياقه يتلو بعضُه بعضاً، ولايقطع بغيره، فكان ممّا نذكره:

ذكروصول الملك الأفضل نجم الدّين أيّوب والد الملك النّاصر إلى الديا رالمصرية

كان الملـــــك النّاصر قد كتب في طلـب والده، رحمهما الله تعالى، فوصـل بأولاده وأهلـه إلى القاهرة في السّـابع والعشريـن من شهـر رجب سنة خمسٍ وستين وخمسمائة؛ ولمّا وصـل تلقّاه الخليفـة العاضـد لديـن الله بظاهر بـاب الفتوح عندشجرة الإهليلج، ولم تجر بمثل ذلـك عادة، فكان يوماً مشهـوداً، وخَلَع العاضدُ عليـه، ولقّبه الملك الأفضل، وحمل إليه من أنـواع التحـف والألطـاف شيئـاً كثيراً؛ وأقطعـه الإسكنـدريـة ودميـاط والبحيرة، وأقطـع ولـده شمـس الـدولـة، أخـا النّـاصر، قـوص وأسـوان وعيذاب، وكانت عبرتها يوم ذاك مائتي ألف وستةً وستين ألف دينار.

ذكر إبطال الأذان بحيّ على خير العمل

قال المؤرخ: ولِعَشْر مضينَ من ذي الحجـة سنة خمسٍ وستّين وخمسمائة أمر الملك النّاصر أن يسقط مـن الأذان قولهم«حيّ على خير العمل،محمّد وعليّ خير البشر». وكـانـت أوّل وصمـة دخلـت على الشيعـة والـدّولـة العُبيديّة؛ ويئسـوا بعدها من خير يصـلُ إليهم من الملك النّـاصر، ثم أمر أنْ يُذكـر في الخطبة بكـلام مُجْمَلٍ، وليُلْبِس على الشيعة والعـامّة: اللّهـم أصلحْ العاضد لدينك.

ذكر ما أنشأه الملك النّاصر صلاح الدّين بالقاهرة ومصر

من المدارس والخوانق

قـال المؤرخ: وفي أوّل سنـة ستٍّ وستين وخمسمائة أمـر الملـك النّـاصر

بهَدْم دار المعونة المجاورة للجامع العتيق بمصر، ودارُ المعونة هي المكان الذي يعتقل فيه النّاس، وأمر ببنائها مدرسة لطائفة الفقهاء الشافعية، وتعرف هذه المدرسة بابن زين التجّار. وإنّما عُرفت به لأنه درس بها.

ثم عمر دار العزل المجاورة لباب الجامع المعروف بباب الزكخته مدرسة للطائفة المالكّية، ودرس فيها ابن أبي المنصور.

وفيها اشترى تقيّ الدين عُمر بن شاهنشاه، ابن أخي صلاح الدّين، الدّارالمعروفة بمنازل العّز،بمصر، وبناها مدرسة للطائفة الشافعية.

وكانت هذه الدّار يسكنها الأمير ناصر الدولة ابن حمدان في الأيّام المستنصرية؛وقد تقدَّم ذكر ذلك.

ثم أمر الملك النّاصر ببناء مدرسة الشافعّي والبيمارستان، وعمّر الخانقاه المعروفة بسعيد السعداء على مايأتي ذكر ذلك.

وفي هذه السنة أيضاً أبطل الملك النّاصر مجلس ا لدّعوة من الجامع الأزهر وغيره، وكان من سُنَّة الدّولة العُبيديّة أن يقيموا لهم دُعاةً كالخطباء، والله أعلم.

ذكر تفويض القضاء بالدّيار المصريّة

للقاضي صدر الدّين بن درباس

وفي سنة ستٍّ وستّين وخمسمائة في ثامن عشري جمادى الآخرة فوّض السلطان الملك الناصر القضاء بالديار المصرية الى صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس المارداني ، فاستمر إلى آخر الايام الناصرية.

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة، في سابع المحرم قُطعت خُطبة العاضد لدين الله، ومات في يوم عاشوراء كما قدّمناه.

وفيها في الثالث عشر من جمادى الأولى كُشِفَ حاصلُ الخزائن بالقصور، فوجد فيها مايزيد على مائة صندوق، ومن الذخائر النّفيسة مالايزيد عليه.

وفيها في صفر أمَرَ الملكُ النّاصر بإبطال المكُوس بالقاهرة والأعمال عن التجار المتردِّين إليها وإلى ساحل المقسم صادراً وارداً، فكان مبلغُ ذلك مائة ألف دينار عينا.

وفيها رُسم بتحويل سنة خمس وستّين الخراجية إلى سنة سبع وستين الهلاليّة، وكانت قد حُوّلت في سنة خمسمائة في أيام الأفضل أمير الجيوش.

ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب

كانت وفاتُه رحمه الله تعالى في يوم الثلاثاء السّابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وستين وخمسمائة، وذلك أنّه ركب من داره، فلمّا انتهى إلى باب القصر في وسط المحجة شَّب به فرسُه فسقط عنه، فحُمل إلى منزله، فعاش ثمانية أيام ومات فدُفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في الدّار السّلطانية، ثم نُقلا إلى المدينة النبويّة، على ساكنها أفضل الصّلاة وأتم السّلام، وقُبرا في تُربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل رحمه الله.

وفي سنةتسع وستين وخمسمائة أمر الملك النّاصر ببيع الكتب التي بخزانة القصر، فكانت أكثر من مائة ألف كتاب من سائر المصنفات، فأبيعت بأخَسّ الأثمان.

- ١٠٥٤٣ -

ذكر عمارة قلعة الجبل والسّور

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة أيضاً أمر الملك النّاصر بعمارة قلعة الجَبَل والسّور الدّائر على القاهرة ومصر، وجعل مبدأه من شاطىء النّيل إلى شاطئه . فكان دَوْرَ السّور على القاهرة والقلعة تسعة وعشرين ألف ذراع، وثلاثمائة ذراع وذراعين، من ذلك مابين قلعة المقسم والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع؛ ومن القلعة بالمقسم إلى حائط قلعة الجبل ثمانية آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع واثنان وتسعون ذراعا؛ ومن حائط قلعة الجبل إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائر قلعة الجبل ثلاثة آلاف ومائتا ذراع وعشرة أذرع، كل ذلك بالذراع الهاشمي. وتولّى عمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، وحفر في رأس الجبل بئراً يتَوصل إلى مائها المعين من دَرَج منحوتةٍ من الجبل؛ وتوفي الملك الناصر قبل أن تكمل عمارته.

وفيها أمر ببناء المدرسة عند تربة الإمام الشّافعي رحمه الله، وتولاها الفقيهُ الزاهد نجم الدين الخُبوشاني.

وأمر باتّخاذ دارٍ في القصر بيمارستاناً للمرضى، ووقَفَ على ذلك وقوفاً، وهذا البيمارستان يُسمَّى في وقتنا هذا البيمارستان العتيق.

وفيها أسقط مكوس مكّة، شرَّفها الله تعالى، المقررة، على الحاج وعوض أميرها عن ذلك في كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحاً تُحمل إلى ساحل جدة، وعيَّنَ لذلك ضِياعاً بالدّيار المصرية وقرّر أيضاً حَمْل غلاّتٍ إلى المجاورين بالحرمين الشريفين والفقراء؛ فقال الشيخ أبو الحسين محمد بن جبير الأندلسي في ذلك قصيدة يمدح بها الملك الناصر:

رفَعْتَ مكارمَ مَكْسِ الحجازِ
بإنْعَامِكَ الشّامِلِ الغَامرِ

وأمَّنْتَ أكنافَ تلك البلادِ
فهانَ السَّبيلُ عَلى العَابرِ
وسُمتَ أياديك فيَّاضَةً
علىٰ وَاردٍ وعَلى صَادِرِ
فكْم لكَ بالشّرق من حَامدٍ
وكْم لكَ بالغَرْب من شَاكرِ

ذكر قتل جماعةٍ من المصريين

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة أيضاً، في ثاني شهر رمضان صُلب جماعة ممَّن أراد الوُثوب بمصر من أصحاب الخلفاء العُبيديّين، وسببُ ذلك أن جماعة من شيعتهم، منهم عمارة اليمني الشاعر، وعبد الصّمد الكاتب، والقاضي الأعزّ سلامة المعروف بالعويرس، والقاضي ضياء الدّين نصر بن عبد الله بن كامل، وداعي الدعاة، وغيرهم من جند العُبيديين ورجال السّودان وحاشية القصْر ومَنْ وافقهم من الأمراء الصّلاحية والجند، اتَّفق رأيهم على استدعاء الفرنج من جزيرة صقليَّة، ومن سواحل الشّام إلى الديار المصريّة على شيء بذلُوه لهم من المال والبلاد، وقرّروا أن الملك الناصر إذا خرج إليهم بنفسه ثار هؤلاء بالقاهرة ومِصر وأعادُوا الدولة العُبَيديّة، العلوية بزعمهم، ويعود مَنْ معه من العساكر الذين وافقُوهم عنْهُ فلا يبقى له مُقام بالبلاد. وإنْ أقام هو وأرسل العساكر إليهم ثاروا به فأخذُوه باليد. وقال لهم عمارة: وأنا فقد أبْعَدْتُ أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسدّه. وتجتمع الكلمة عليه بعده. وأرسل إلى الفرنج وتقرّرت هذه القاعدة بينهم.

قال: وكان ممن أدخلُوه معهم في هذا الأمر زين الدّين عليّ بنُ نجا الواعظ، وهو ا لقاضي ابنُ نجيّة، ثمّ اختلفُوا في وزارة الخليفة: فقال بنو رُزّيك: يكون الوزير منّا.والقاضي. وقال بنو شاور: بل يكُون الوزير منّا

فحضر ابنُ نجا إلى الملك النّاصر وأعْلَمه بصُورة الحال، فأمره بمُباطَنتهم وموافقتهم، ومطالعته بأحوالهم ففعل ذلك.

ثم وصل رسولٌ من مَلِك الفرنج إلى الملك النّاصر بهدَايا، وهو في الظّاهر لهُ، وفي الباطن لهؤلاء، فوضع الملكُ النّاصر عليه من النَّصارى من داخله وباطنه؛ فذكر له الحال على جليتّه، فأعلم به الملك النّاصر. فلما تحقَّقه قبض على هؤلاء وصَلَبهم، فكان ممن صلب عمارة اليمني، وعبد الصّمد الكاتب، والقاضي الأعز العويرس، وغيرهم.

وجاء عمارة إلى باب القاضي الفاضل لَّما مُسك فاحتجب عنه، فقال عمارة:

عبدُ الرّحيم قد احتَجبْ
إنْ الخَلاَص من العَجبْ

ونُودي في أجناد المصريين بالرّحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصي الصّعيد، واحتاط الملكُ النّاصر على مَنْ بالقصر من سُلالة العَاضِد وأهله. وأمَّا مَن كان قد وَافَقهم من أصحابه فلم يخاطبهم في ذلك ولاأوْهمهم أنَّه عَلِم به. وبَلَغ ذلك فرنج الساحل فلم يتحركوا من أماكنهم، وأما فرنج صقليَّة فإنهم قصدوا ثغر الإسكندرية على مانذكره.

وفي سنة سبعين وخمسمائة، في أوائلها، خالف الكنزُ، أمير العرب، على الملك النّاصر بصعيد مصر، واجتمع معه جماعة كبيرة من رعَايا البلاد والعُربان والسّودان وغيرهم، وقَتَل أخا الأمير أبي الهيجاء السّمين، وكان قد توّجه لإقطاعه بالصّعيد. فعظُم قتلُه على أخيه، وكان من أكابر الأمراء النّاصرية، فَسَار إلى قتال الكنز. ونَدَب معه الملك الناصر جماعة من الأمراء والعسكر، فوصلُوا إلى مدينة طُود، وهي على مسافة يوم من مدينة قوص إلى جهة الصّعيد، فامْتنع مَنْ بها عليهم، فقاتلُوهم وظَفِروا بهم وقتلوا كثيراً منهم، وأخربوا البلد، فهي إلى وقتنا هذا تُعرف بطُود

ذكر مااستَوْلى عليه الملكُ الناصر من البلاد الإسلامية بنفسه وأتباعه

كان من البلاد التي خُطب بها للملك النّاصر صلاح الدّين يوسف طرابلس الغرب، وبعض بلاد إفريقية، منها مدينة قَابس.

وسبب ذلك أن شرف الدين قراقوش مملوكُ تقيّ الدين عمر، ابن أخي الملك النّاصر، توجَّه في سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة في طائفة من الأتراك إلى جبال نَفُوسة[٢١]، واجتمع به مسعُود بن زمام المعروف بالبلاط، وهو من أعيان أمراء تلك الناحية، وكان خارجاً عن طاعة [ابن]عبد المؤمن. فاتفقا وكثُر جمعهما، ونزَلاَ على طرابُلس الغرب، فحاصراهَا مدَّة وضيَّقا على أهلها، ثمّ فتحاها، فاستولى قراقوش عليها، وأسْكنَ أهله بقصرها، ثمّ ملك كثيرا من بلاد إفريقية إلا المهديَّة وسفَاقُس، وقَفْصَة، وتُونس، وماوَالاَها مِن القُرى والمواضع. وكَثُر جمعُ قراقوش، فحكم على تلك البلاد، وجمع أموالاً عظيمة وجعلها بمدينة قابس، وقويت نفسُه، وطمع أنّه يستولى على جميع إفريقيّة لبعد ابن عبد المؤمن عنها واشتغاله بجهاد الفرنج، ثم جاء بوزابه مملوك تقيّ الدين أيضاً، بطائفة من التُّرك فزاد بهم قوَّة إلى قوَّته، ثم اجتمع الأتراك وعلي ابن إسحاق الملَثّم [المعروف بابن غانية] وملكوا بجاية في سنة ثمانين، وانقادوا إلى الملثم واستعانوا به ، لأنه من بيت المملكة والرئاسة القديمة ، ولقبوه بأمير المسلمين؛ وقصدوا بلاد إفريقية فملكوها شرقا وغربا إلا تونس والمهدية ، فإن الموحدين حفظوها.

ولّما حصل استيلاؤهم على بلاد إفريقية قُطِعت خطبة أولاد عبد المؤمن وخُطب للنّاصر لدين الله العبّاسي؛ وقصدوا مدينة قفصة فتسلموها في سنة اثنتين وثمانين: وأقام بها طائفة من الملثمين والأتراك.

الخراب، وغيطانُها عامرة، ثمّ سار العسكر منها إلى الكنز، فقاتلَوه،فقُتل هو ومَن مَعَه من الأعراب، وأمِنَت البلاد واستقرّ أهلها.

وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة ظهر بالدّيار المصرية فأرٌ كثير جداً. قال القاضي الفاضل عبْدُ الرحيم: حدثني مَنْ شاهد هذا الفأر وهو يرحَلُ من بقعة إلى أخرى فيغطي الأرض بكمالها حتى لايظهر منها شيءٌ البتّة وأنه شاهده يمرُّ بأماكن فلا يُلمُّ بها ولايخرج عليها والزروع بها محصورة. ويمرّ بأخرى فلا يلبث أن يُفسد جميعَ مافيها ولايرتحلُ عنها وبها شيءٌ من الزّرع ولا المقات بالجملة.

وفي سنة تسع وسبعين وخمسمائة ظهر بأبوصير السدر[٢٢] من أعمال الجيزة بيت أشاع النّاس أنّه بيت هرمس، ففُتح بحضور القاضي نظام الدّين بن الشّهرزوري، وأُخرِجَ منه أشياء من جملتها صُور كِبَاشٍ وضفادع بأزهُر، وقوارير دهنج، وفلوس من فضة ونحاس، وأصنام نحاس وياقوت، وغير ذلك من الذّهب والفضة والتّحف القديمة، ووُجِد فيه خلقٌ كثير من الأموات.

وفي سنة ثمانين وخمسمائة في يوم الاثنين مستهل المحرم درس في المدرسة الفاضلية التي انشأها القاضي الفاضل عبد الرحيم بالقاهرة بدرب ملوخيا ؛ ورتب فيها لإقراء كتاب الله تعالى الشيخ الإمام العالم الزكي أبو محمد القاسم بن فيرُّه الرُّعيني الشاطبي؛ وفي التّدريس على مذهبي الشّافعي ومالك الفقيه أبو القاسم عبد الرحيم بن سلامة الإسكندري، رحمهما الله تعالى.

وحيث ذكرنا هذه النّبْذة من الحوادث التّي اتّفقت في خلال دولته، فلنَذْكر مااستولى عليه من البلاد الإسلاميّة.

فلّما اتصلت هـذه الأخبار بالأمير يعقـوب بن يوسـف بن عبدالمؤمـن اختار من عسكـره عشرين ألف فارس من الموحديـن، وسار بهم في صفر سنة ثـلاث وثمانين، فوصل إلى مـدينة تونـس، وأرسل ستة آلاف مـع ابن أخيه، فساروا إلى الملثم والأتراك بقفصة، فهـزمهم الملثم ومن معه في شهر ربيع الأول من السنة، فجاء يعقوب بن يـوسف بمن معه في نصف شهر رجب منهـا، والتقوا على مدينة قـابس، فانهزم الأتراك والملثـم، وقتل كثير منهـم ، وفتح يعقـوب قابـس، وأخذ أمـوال قراقـوش وأهله وحملهـم إلى مراكـش. وحصر مدينة قفصة ثـلاثة أشهر وبها الترك، فطلبـوا الأمان لهم ولأهل البلد، فأمنهم وسير الأتراك إلى الثغور لما رأى من شجاعتهم.

هذا ما اتفق لهذه الطائفة، وإن كانـت هذه الفتوحاتُ لا تختص كلها بالدولة الأيـوبية، إلا أنهم كانوا سبباً، وهم الذيـن استولوا على البلاد كما ذكرنا فأوردناها في أخبارهم.

ذكر استيلائه على اليمن

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة جهّز الملك النـاصرُ أخاه الملك المعظم شمس الـدّولة تورانشـاه إلى اليمن، فسـار في مستهل شهر رجـب، وكان عُمارة اليمني الشّـاعر يـذكر لـه البلاد ويحسنهـا له ويحثـه على قصدهـا. ويعظم مملكتهـا، فسار ووصـل إلى مكة شرفهـا الله تعالى، ومنهـا إلى زبيد وبها صـاحبها عبـد النبـي المتغلب عليهـا ، فلّما قُـرب منها ورأى أهلهـا انهزموا، فـوصل المصريون إلى سـور زبيد فلـم يجدوا عليه من يمانـع عنه، فنصبوا السـلاليم وصعـدوا عليها إلى السـور فملكوا البلـد عنوة ونهبـوه، وأسر المتغلـب عليها عبـد النبي وزوجتـه المدعـوة بالحرة، وكـانت امـرأة صالحة كثيرة الصدقـة، وسلم شمس الدّولـة عبد النبي إلى سيف الـدّولة مبـارك بن كـامـل بن منقـذ ، وهـو من أمـرائه، وأمـره أن يستخرج منـه

الأموال، فاستخرج منه شيئاً كثيراً وأظهر دفائنَ كانت له، ودلتهم الحرة على ودائع لها كثيرة . ثم أصلح أمر زبيد وخطب بها للنّاصر لدين الله .

ثم سار إلى ثغر عدن، وهي فُرْضة الهند والزنج والحبشة وعُمان وكرمان وكش وفارس وغير ذلك؛ وهي من جهة البر من أمنع البلاد واحصنها. وصاحُبها يومئذ رجل اسمه ناشر، فخرج إليه وقاتله، فانهزم هو ومن معه؛ فسبقه بعض عسكر الدّولة فدخلوا البلد قبل أهله وملكوه، وأسر صاحبه، وقصد العسكر نهب البلد، فمنعهم شمس الدّولة، وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنّما جئنا لنملكها ونعمّرها ونتنفع بها ، ثّم عاد إلى زبيد وحصر ما في الجبل من الحصون فملك قلعة تعزّ واسمها الدّمولة، وهي من أحصن القلاع، وبها تكون خزائن صاحب اليمن، ومَلَك غيرها من الحصون والمعاقل، واستناب بثغر عدن عزّ الدين عثمان الزنجيلي، وبزبيد سيف الدّين مبارك بن كامل بن منقذ، وجعل في كلّ حصن نائباً من أصحابه.

وأحسن شمسُ الدّولة إلى أهل البلاد؛ وعادت زبيدُ إلى أحسن ما كانت عليه من العمارة والأمن. ثّم عاد شمس الدولة من اليمن، وقدم إلى دمشق بعد أن ملكها الملك الناصر، فوصل إليها في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة.

ذكر ملكه مدينة دمشق

قال المؤرخ: لّما توفي الملك العادلُ نور الدّين الشهيد محمُود بن زنكي رحمه الله، كما قدّمناه في أخباره، وولي بعده ولدُه الملك الصّالح اسماعيل، أقرّ الملكُ الناصر الخطبة باسمه بعد أبيه، ولم يخطُبْ لنفسه، ثم اتفق ما ذكرناه من نُقْلة الملك الصّالح من دمشق إلى حلب، ولم يُستأذن الملكَ النّاصر في ذلك ولا كتب له فيه ؛ فسار من الدّيار المصريّة إلى الشام في شهر ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة، ووصل إلى دمشق في يوم الاثنين

سلخ الشهر — وقال ابن شدّاد في سلخ شهر ربيع الآخر — وتسلم دمشق من الأمير شمس الدّين ابن المقدّم ونزل بدار العقيقي، وكانت سكن أبيه، وأحسن إلى الأمراء وأكرمهم، وأظهر أنه إنما حضر إلى الشام نُصرة للملك الصّالح، وليعيد عليه ما أخذه ابنُ عمه سيف الدّين غازي من بلاده، وأقر خطبته ولم يقطعها ولا خطب لنفسه.

ذكر ملكه مدينة حمص وحماة

قال المؤرخ: ولّما ملك دمشق استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغدكين بن أيوب ، وتوجّه إلى مدينة حمص في مستهل جمادى الأولى، فنازلها، فملك المدينة ولم يشتغل بالقلعة ؛ وترك بالمدينة من يحفظها ويمنعُ من في القلعة من التصرّف.

وسار منها فوصل إلى مدينة حماة في مستهل جُمادى الآخرة؛ وكان بقلعتها الأمير عزّ الدّين جُرديك ، وهو من المماليك النوريّة، فامتنع من تسليمها، فأرسل إليه يعرّفه ما هُو عليه من الطاعة للملك الصّالح، فاستحلفه جرديك على ذلك، وخرج إليه، وترك أخاه بالقلعة ليحفظها. وتوجّه عزّ الدّين جُرديك إلى حلب ليكون سفيراً بين الملك الناصر وبين كمشتكين فاعتقل بحلب فلما بلغ أخاه ذلك سلم القلعة إلى الملك الناصر فملكها.

ذكر حصره حلب وعوده عنها وملكه قلعة حمص وبعلبك

قال: ولّما بلغ الملك النّاصر خبرُ عزّ الدين جرْديك والقبض عليه، توجّه إلى حلب وحصرها في جُمادى الآخرة من السنة، فقاتله أهلها، وركب الملكُ الصّالح وهو صبي وعمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب، وذكرهم بإحسان والده إليهم، واستنصر بهم في دفع صلاح

الدّين، فبكوا وحلفوا له على بذل النفوس والأموال، وقاتلوا أشدّ قتال. وأرسل سعد الدّين كُمُشتكين إلى سنان، مقدّم الاسماعلية ، مالا كثيرا على قتل الملك النّاصر؛ فسيّر إليه جماعة ، فظفر صلاحُ الدّين بهم وقتلهم، ورحل عن حلب في مستهل شهر رجب من السنة.

وكان سبب رحيله أنّ كُمُشتكين أرسل إلى القومص ريمند الصّنجيلي، صاحب طرابلس، أن يجهّز إلى بلاد صلاح الدّين من الفرنج من يمنعُه من الوُصول إليها، فلّما بلغهُ ذلك فارقَ حلب وعاد إلى حماة في ثامن الشهر، بعدَ نزول الفرنج على حمص بيوم، فلمّا سمع الفرنج بقُربه رحلوا عن حمص، ووصل صلاح الدّين إلى حمص، وملك القلعة بعد حصار، وكان ملكه لها في الحادي والعشرين من شعبان من السّنة.

ثّم سار منها إلى بعلبك، وكان بها يمن الخادم متوليها من أيام نور الدّين، فحصرها الملك النّاصر، فطلب يمن الأمان، فأمنه وتسلم القلعة في رابع شهر رمضان.

ذكر انهزام عسكر سيف الدين غازي من الملك الناصر وحصره حلب حلب ثانيا

قال المؤرخ: كان الملك الصّالح كتب إلى ابن عمه سيف الدّين غازي يستنجدُه على قتال صلاح الدّين ودفعه، فجهز العسكر صُحبة أخيه عزّ الدين مسعود، وتأخر هو لما وقع بينه وبين أخيه عماد الدّين من الاختلاف الذي قدمناه في أخبار الدولة الاتابكية، فسارت العساكر السيفية ، واجتمع معها العسكر الحلبي، وساروا كلهم لقتال الملك الناصر ، فأرسل إلى سيف الدّين يبذل له تسليم حمص وحماة وأن يُقِرَ بيده مدينة دمشق نيابةً عن الملك الصالح؛ فلم يُجب إلى ذلك وقال: لابُد من تسليم جميع ما أخذه من بلاد الشام ويعود إلى مصر .

فلما امتنع سيف الدّين من إجابته تجهّز عند ذلك للقاء عزّ الدين مسعُود ومن معه وقتالهم، فالتقوا في تاسع عشر شهر رمضان بقُرون حماة، فلم تثُبتْ عساكر سيف الدين وانهزموا لايلوى بعضهم على بعض، وتبعهم الملك الناصر وغنم معسكرهم، ووصل إلى حلب وحاصرها، وقطع خُطبة الملك الصالح، وأزال اسمه.

فلّما طال الحصار على من بحلب راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم منها؛ فأجابهم إلى ذلك، وانتظم الصّلح، فرحل عن حلب في العشر الأول من شوال ووصل إلى حماة، ووصلت إليه بها رسل الخليفة المستضيء بنُور الله ، ومعهم الخلع والأعلام السود، وتوقيع من الدّيوان العزيز بالسلطنة ببلاد مصر والشام.

وفيها ملك قلعة بعرين في العشر الأول من شوال من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، وكان من أكابر الأمراء النورية، فجاء إلى خدمة الملك الناصر ، وظن أنه يكرمه ويقربه، فلم ير من ذلك شيئاً ففارقه وعاد إلى قلعته، فلما استقر الصلح بين الملكين الناصر والصالح نازل بعرين ونصب عليها المجانيق وملكها.

ذكر الحرب بين

الملك الناصر وسيف الدين غازي وانهزام غازي

قد قدمنا انهزام عز الدين مسعود بالعسكر السيفي من الملك الناصر في سنة سبعين وخمسمائة، فلّما كان في سنة إحدى وسبعين جمع سيف الدين غازي جميع عساكره وفرق فيهم الأموال، واستنجد بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما، وسار إلى حلب، واستصحب سعد الدين كمشتكين مدبر دولة الملك الصّالح والعسكر الحلبي.

وكان صلاح الدّين في قلةٍ من العسكر لأنه جهّز أكثر عساكره إلى الدّيار المصريّة، فلّما بلغه ذلك أرسل يستدعي عساكره ، فلم تلحقه؛ وأعْجَلتهُ الحركةُ، فسار من دمشق إلى حلب للقاءِ غازي ومنْ معه، فالتقى العسكران بتلّ السلطان بالقرب من حلب، في عاشر شوال من السنة.

وكان عزّ الدين زلفندار مقدّم العسكر الموصلي قليلَ المعْرِفة بالحُروب، فجعل أعْلام صاحِبه في وهَدَةٍ من الأرض لايراها إلا من هو بالقُرب منها، فلما لم يَرها النّاس ظنوا أن سيف الدّين غازي قد انْهزم، وانهزموا لايَلْوي الأخ على أخيه، ولم يُقْتل من العسكر على كَثرته غيرُ رجل واحدٍ، وانهزم سيف الدّولة إلى الموصل، وترك أخاه عزّ الدّين بحلب.

قال العماد الأصفهاني: إن سيف الدّين غازي كان في عشرين ألف فارس، وخطّاه ابن الأثير الجزري في ذلك وقال إن أخاه مجَد الدّين أبا السّعادات المبارك كان يتولّى كتابة الجيش، وأنه وقف على جريدة العَرْض فكانت ستّة آلاف.

وإنْ جَمعنا بين قوليهما فنقول: إنّ الجريدة التي وقف عليها ابنُ الأثير كانت للجيش المختصّ بسيف الدّين غازي خاصّة، والذي نقله العماد الأصفهاني عن جميع ماصَحبه من سائر الجيوش الحلبية والحصكفية والماردينيّة، والله أعلم.

ذكر ماملكه الملك الناصر من بلاد الملك الصالح بعد هذه الوقعة

قال المؤرّخ: لمّا استولى الملك النّاصر على أثقال العسكر الموصلّي وغنمها، واتّسع هو وعسكره بها، سارَ إلى بُزاعة، فحصرها. وملكها بعد

قتال مَنْ بقلعتها، وجعل بها من يحفظُها، ثمّ سار إلى منبج فحصرها في آخر شوّال، وبها صاحُبها قطب الدّين ينَال بن حسّان المنبجي، وكان شديد العَداوَة للملك النّاصر والتّحريضِ عليه؛ فملك المدينة وحاصَر القلعة وملكها عنوةً، وأسر صاحَبها ينَال، ثم أطلقه، فسارَ إلى الموصل، فأقطعه سيْف الدّين غازي مدينة الرّقة.

ثم سار إلى قلعة عَزَاز فنازلها في ثالث ذي القعدة ونصب المجانيق، ولازم الحصَار ثمانية وثلاثين يوماً، وتسلَّمها في حادي عشر ذي الحجة من السّنة.

ووثب عليه في مدّة الحِصار باطنيٌّ، فضربه بسكّين في رأسه، فرَدّ عنه المِغْفَرُ ، وضربَه عدَّة ضربات وقعت في زيق كزاغنده.

ذكر حصره مدينة حلب والصلح عليها

قال: ثمّ رحل الملك النّاصر عن أعزاز ونازل حلب في نصف ذي الحجة، وحَصَرها إلى العشرين من المحَّرم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وتردَّدت الرّسائل بينهم في الصلح، فاستقرّت القاعدة بين الملك الناصر وسَيْف الدّين غازي، والملك الصّالح وصاحب ماردين، وصاحب حِصن كَيْفَا، وتحالفوا أن يكونوا كلُّهم عوناً على النّاكث منهم، فتّم الصّلح، وأعاد الملك النّاصر إليهم قلعة أعزاز، ورجع عن حلب.

ذكر نهبه بلاد الإسماعلية

قال: لمّا عاد الملك النّاصرُ من حلب قصَد بلاد الإسماعيليّة في شهر المحرَّم سنة اثنتين وسبعين لقتالهم، لأنّهم أرادوا قتله؛ فنهب بلادَهم وخرَّبها؛ ونازل قلعة مَصْياف، فأرسل سنان مقدّم الإسماعيلية إلى الأمير شهاب الدّين الحارمي صاحب حماة، وهو خال الملك الناصر، يطلُب

منه الدّخول بينهما في الصّلح والشفاعة، وتَهدَّده بالقتل إن لم يفعل. ففعل ذلك، وتمَّ الصلح، وتوجَّه الملكُ النّاصر إلى دمشق، ثم رحل منها إلى الدّيار المصريّة لأربعٍ خَلَون من شهر ربيع الأول، ووصل إلى القاهرة لأربع بقين منه.

ذكر عبوره الفرات وملكه الديار الجزيرية

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة كان الملك الناصر يحاصر بيروت، فأتَتْه كتب مظَّفر الدّين كوكبري بن زين الدّين علي بن بكتكين مُقْطع حرَّان يطلبه إلى البلاد ويعده المساعدة. فسارَ وعبَر الفرات، وكاتب ملوكَ الأطراف ووَعدهم، وبذَل لهم البُذول على نَصْرته، فأجابه نورُ الدّين محمد صاحب حصن كيفا، فسار الملك النّاصر إلى مدينة الرُّها فحصَرها في جُمادى الأولى، ودَامَ الحصار، فطلب صاحبها فخر الدّين مسعود الزّعفراني الأمان، فأمنّه وتسلّم البلد، وصار صاحبها في خدمته؛ وتسلّم القَلعة، فلما ملكها سلّمها لمظفر الدّين صاحب حرّان، ثم سار عنها إلى الرّقّة وكان بها مُقْطَعها قطبُ الدّين ينال بن حسان المنْبجي، فملكها، وسار صاحبها إلى نصيبين، فملك المدينة لوقته، وحصَر القلعة عدَّة أيام، فملكها؛ وأقطعها للأمير أبي الهيجاء السمين، وهو من أكابر الأمراء، وسارَ عنها، ومعه نُور الدّين صاحب الحصن، فحاصر الموصل فلم يظفر منها بشيء لحصانتها وكثرة مَنْ بها.

ذكر ملكه مدينة سنجار

قال:ثم سار الملك النَّاصر من الموصل إلى سنجار، فسيّر مجاهد الدّين قايماز إليها نجدةً من العسكر، فمنعهم الملك الناصر الوصول إليها، وأوقع بهم وأخذ سلاحهم ودوابهم، وسار إليهاونازلها وبها شرف الدّين

أمير ميران أخو عز الدّين صاحب الموصل، فملكها بأمانٍ بعد حصار عظيم، وسار شرفُ الدّين ومَنْ معه إلى الموصل.

واستقرَّ للملك النّاصر جميعُ ماملكه في هذه الوقعة بملك سنجار واستناب بها سعد الدين بن معين الدّين أنر، وهو من أكابر الأمراء، وأحسنهم صورةً ومعنىً. وعاد إلى نصيبين، فلقيه أهلها وشكوا إليه من أبي الهيجاء السّمين فأنكر عليه وعزَله.

وسار إلى حرّان فوصل إليها في أوائل ذي القعدة، فكاتب عزُّ الدّين صاحبُ الموصل صاحب خلاط، وهو شاه أرمن، واستنجد به على حَرْب الملك النّاصر، فلمّا بلغه اجتماعهما سار إلى حرزم بالقرب من ماردين.

ذكر ملكه مدينة آمد وتسليمها إلى صاحب حصن كيفا

قال: ثم سار من هذه الجهة إلى آمد فوصل إليها في سابع عشر ذي الحجة فنازَلها وحاصَرها، ونصب عليها المجانيق، وهي من أحسن البلاد، يُضرب المثل بحَصَانتها، وكان صاحبها ابن نيسان في غاية الشح يبخل ببذل المال، فملَّه أصحابه وتخاذلوا عنه، فأخرج نساءً إلى القاضي الفاضل وسأله أن يأخذ له الأمان ولأهله، وأنْ يؤخرّ ثلاثة أيام حتى ينقل ماله بالبلد من الأموال والذّخائر.

فأجابه الملك الناصر إلى ذلك، وتسلَّم البلد في العشر الأول من المحرّم سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وانقضت الأيام الثلاثة قبل فراغة من نقل أمواله، فمُنع مما بقي. وسلّم الملك الناصر البلد بما فيه إلى نور الدّين صاحب الحصن، وكان فيه من الذخائر ماتزيد قيمته على ألف ألف دينار.

ذكر ملكه تل خالد وعين تاب

قال:ثـم سار الملك النّـاصر إلى تلّ خـالد من أعمال حلـب فحصرها ورمَاهـا بالمجـانيق، فطلـب أهلها الأمـان، فأمنهـم، وتسلَّمها في المحـرّم أيضاً.

وسار منهـا إلى عين تاب، وبها ناصرُ الـدّين محمد[بـن خمارتكين] من أيّام نور الـدّين الشّهيد، فحصرها، فَراسله في طلـب الأمان على أن يكون الحصنُ بيده ويكـون في خدمته، فأجـابه إلى ذلك وحلفَ لـهُ عليه، فنزل إليه أيضاً واتصل بخدمته.

ذكر ملكه حلب

قال: ثمّ سـار من عَيْن تاب إلى حلب في المحرّم أيضاً ونـزل بالميدان[الأخضر]عدّة أيام ثم انتقل إلى جبل جوشن؛ فنـزل بأعلاه وأظهر أنّه يريد [أن]يبني مسـاكن لنفسـه ولأصحابه وعَسَـاكره، وأقـام أيّامـاً والقتال بين العسكرين في كل يوم.

وكان صاحبُها عماد الدّين زنكـي بن مَوْدُود بن زنكي مجداً في القتال، فطالبـه بعضُ الجنـد بأرزاقِهم، فـاعتذر بقلّة المال عنـده؛ وكان قـد شحَّ بإخـراجِه، فقـال له: مَنْ يـريدُ حِفْظ حَلَـب يُخرج الأموال ولَـو باع حلي نسائه. فجنح إلى تسليمها، فرَاسَلَ الملـكَ النّاصر في طَلَب العِوض عنها: سنجـار، ونصيبين، والخابور، والـرَّقَّة، وسَرُوج، فَسَلَّـمَ مثلَ حلـب وأعمالها وتعـوّض عنها قـرى ومزارع، وجـرت الأيمان على ذلـك، وتسلَّمها الملـكُ النَّاصر في ثامن عشر صفر.

فسبَّ النَّاس عمَاد الدّين زنكي، وأسمعُوه المكرُوه على فعله.

واستقرت الحالُ بينهما أن عماد الدّين يحضُر إلى خدمة الملك النّاصر متى استدعاه بنفسه وعسكره ولايحتج بحجة.

قال: ولما تسلّم الملك النّاصر حلب امتدحه الْقَاضي محيي الدين ابن الزكي، قاضي دمشق،بقصيدةٍ جاء منها:

وفتحُكم حَلباً بالسّيف في صفر
مبشّر بفُتُوح القُدْس في رجب

فكان ذلك.

ونقل الملكُ النّاصر أخاه الملكَ العادل من نيابة الدَّيار المصرية إلى حلَب، في سنة تسعٍ وسبعين، وأعطاه حَلب وقلعتها وأعمالها، ومنبج ومايتعلق بها؛ وسيَّره في شهر رمضان.

ذكر فتح الملك النّاصر حارم

قال:ولمَّا فتح الملكُ النّاصر حلب كان بقَلعة حَارم سرخك، وهو من المماليك النورية، فامتنع من تَسْليمها، فراسله في ذلك وخيره فيما يُريد من القلاع، ووَعده الإحسان؛ فاشْتطَّ في الطلب، فتردَّدت الرّسائل بينهم، فراسل سَرْخَك الفرنج ليحتمي بهم، فبلغ ذلك مَنْ معه من الأجناد فخافوا أن يسلّمها للفرنج، فقبضُوا عليه واعتقلوه، وراسَلوا الملك النّاصر في طلب الأمان، فأجابهم وتسلّم الحِصْن ورتَّب فيه دُزْدَاراً من بعض خواصّه، وأقام الملك النّاصر بحلب إلى أن قرر قواعَدها وأقْطع أعمالها.

ذكر حصار الموصل

وفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائةحاصر الملكُ النّاصر الموصل، وذلك

أنَّه سار من دمشق في ذي القعدة سنة ثمانين لقصد حصارها، فلّما وصل إلى مدينة بلد، سيّر إليه عز الدّين صاحب الموصل والدته وابنة عمه الملك العادل نور الدّين الشهيد وغيرهما من النّساء في جماعة من أعيان الدولة يسألُونه المصالحة، وبذلُوا موافقَته وإنجاده بالعساكر مَتَى طَلَبها، ليعُود عن قَصْد الموصل، وإنّما أرسلهنَّ ظناً منه أنّه لو سيّر ابْنَة نُور الدّين إلى الملك النّاصر في طلب الشّام أعطاه لأنها ابنةُ مخدومه، فتلقّاهُنَّ بالإكرام، وأحسن إليهن، واستشار أصحابه في ذلك، فكلٌّ أشار عليه بموافَقَتِهنّ.

فقال له الفقيه عيسى الهكاري وعلّي المشطوب: مثل الموصلِ لاتترك لا مرأة، وإنّ عزّ الدّين ماأرسلهنَّ إلاّ وقَدْ عجز عن الحرب. فوافق ذلك هواه فردّهنّ خائبات، واعْتذر بأعذارٍ غير مقبولة، وقَصَد الموصل و حاصرها، وكان بينهم مناوشاتٌ فلم يتمكّن منها، فندم حيثُ لم يجب النّساء. ففي أثناء ذلك توفي شاه أرمن صاحبُ خلاط، فأشار عليه أصحابه بمُفارقةِ الموصل وقصْد خلاط، ففارقها.

ذكر ملكه ميّافارقين

قال:وَلمَّا سار الملك النّاصر إلى خلاط جعل طريقه مَيَّافَارقين وكان صاحبها قطب الدّين صاحب ماردين قد توفي وملك بعده ابنه، وهو طفل، وكان حكُمها إلى شاه أرمن وعسكرهُ بها؛ فتوفي شاه أرمن أيضاً، فطمع في أخذها ونَازَلها، فرآها مشحونةٌ بالرّجال، وفيها زوجة قطب الدّين المتوفّى وبناته، والمقدّم على جيشها أسد الدّين يرنقش، وكان فيه شجاعةٌ وشهامة، فحَصَرها الملكُ النّاصر من أوّل جُمادى الأولى، ونصب عليها المجانيق والعَرّادات؛ واشتدّ القتالُ فلم يظفَرْ منها بشيء؛ فرجع عن القوّة إلى إعْمال الحيلة، فراسل امرأة قطب الدّين المقيمة بالبلد يقول إنّ أسد الدّين قدْ مَال إلينا في تَسْليم البلد، ونحن نَرْعى حقّ أخيك نور

الدّين فيك بعد وفاته، ونريد أن يكون لك نصيبٌ، وأنا أزوِّج بناتك بأولادي، وتكون مَيَّافَارقين وغيرُها لكَ وبِحُكْمِك، ووَضع من أرْسل إلى أسد الدّين يعرّفه أنّ الخاتون قد مالَتْ للانقياد إلى تَسْليمها، وأنّ مَنْ بخلاط قد كاتَبُوه ليسلّموها إليه. فسُقِط في يده، وضعُفَت نفسه، وأرسل إلى الملك النّاصر يقترحُ إقطاعاً ومالاً، فأجيب إلى ذلك. وسلّم البلد في سلْخ جُمادى الأولى، وعقَد نِكاح بَعْض أولاده على بَعْض البنات.

ذكر عوده إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين صاحبها

قال: ولمّا تسلَّم الملك الناصر مَيَّافارقين وفرغ من أمرها وتدبير أحوالها، عاد إلى الموصل لحصارها، فتردّدت الرّسائل بينه وبين عزّ الدين صاحبها، ووقع الاتّفاق على أن يسلِّم للملك النّاصر شَهرزُور وأعمالها، وولاية القراملي، وجميع ماوراء الزّاب، وأن يَخطُب له على منابر بلاده، ويَضرب السِّكّة باسمه؛ وتحالفا على ذلك، فتسلّم الملك النّاصر البلادَ، وسكنت الدّهماء.

ورحل إلى حرّان فمرض بها وطال مرضه حتى أُيس منه؛ ثمّ عُوفي، وعاد إلى دمشق في المحرّم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة.

قال: ولمّا كان الملكُ النّاصر مريضاً بحرّان كان عنده ابنُ عمه ناصُر الدّين محمد بن شيركوه، وله من الإقطاع حمص والرّحبة، فسار إلى حمص واجتاز بحلبَ، وأحضر جماعة من أحْداثِها، ووَعدهم، وأعطاهم مالاً؛ ثمّ وصل إلى حمص وراسَل جماعةً من الدَّماشقة على تسليم البلد إذا مات الملكُ النّاصر. وأقام ينتَظر مَوْته؛ فتوفي ناصرُ الدّين ليلة عيد الأضحى سنة إحدى وثمانين، وعوفي الملك الناصرُ.

[وكان الملك الناصر] لما بلغَهُ ما اعتمده ناصرُ الدّين بحلب ومُراسلته للدُّماشقة، وضَع عليه النَّاصح ابن العميد سقاهُ سُمّاً فمات، وطُلب ابنُ

العميد من الغَد فلم يوُجد؛ وسَارَ من ليلته إلى الملك النّاصر؛ فَقَويت الظَّنَّة بذلك.

ولمّا تُوفي أعطى الملكُ النّاصر إقطاعه لولده شيركوه، وعمره اثنتا عشرة سنة، وخلف ناصرُ الدّين من الأموال والخيول والآلات شيئاً كثيراً، فحضر الملك النّاصر إلى حمص وعرض تركته، وأخذ أكثرها، واستعان به على الجهاد، ولم يترك إلا مالا خير فيه.

وحضر شيركُوه عند الملك النّاصر[بعد موت أبيه بسنة]، فأجلسه في حجره وسأله إلى أين انتهى من القرآن، فقال إلى قوله تعالى:﴿إِنَّ الذينَ يَأكُلُونَ أمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّما يَأكُلُونَ في بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعيراً﴾(النساء ١٠) ، فاضطرب الملكُ النّاصر لذلك وظنّ أنّه عرّض بفعله، وطَلَب مُؤَدبَه ولَوْحه فوجده كذلك.

فعوّضه عمّا أخذه من مال أبيه الضّياع الخرابَ بالشّام في ذلك الوقت، وهو الذي يُعرف إلى زَماننا هذا بالخراب الأسديّ: وورثته إلى هذا التاريخ يبيعون خراب ضياع الشّام والسّواد والبلْقَاء وغير ذلك. واستولوا من الخراب على مَاليس في كتابهم، وأباعُوا مالا هُو لهم، فإنّه قيل إن الذي اشتمل عليه كتابُ المبايعة أربعمائة ضيعة، وهي التي كانَتْ قد استولى عليها الخرابُ في ذلك الوقت، فأباع ورثته جميع ماخَرب بعد ذلك مِمَّا لم يتضمنّه كتابُهم وأعانهم على ذلك أنّهم يبيعونه لأرباب الجاهات بأخس الأثمان، وأعرف بلدا يسمّى رمدان من بلاد البلقاء بالقرب من الرّقيم والجادية وسنجاب اشتراها الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري لمَّا كان ينُوب عن السَّلطنة بالشام،من الورثة الأسدية بسبعمائة درهم؛ فلمّا مات وانتقل بعضُ ميراثه إلى السلطان الملك النّاصر[محمد بن قلاوون]بالولاء الشرعي، وكنتُ أباشر ديوانه

بالشام، حَصَّلْتُ من مُغل هذه البلدة في سنة إحدى وسبعمائة مأبيع بنيّف وعشرين ألف درهم، فانظُر إلى هذا التفاوت العظيم.

ذكر غزوات الملك النّاصر وما افتتحه من بلاد الفرنج

وقد رأيت أنْ أُفْرد غَزَوات الملك النّاصر وفتوحاته ونكايَاته في الفرنج، ولاأضمّ ذلك إلى غيْره من أخباره، لأن فيه مايدُل على قوّة الإسلام، وأنّ الله تعالى لمْ يزل يؤيّد هذا الدّين من عباده بمَنْ يُناضل عنه، ويَحْمي حوْزته، ويذُب عن أهله، ويستأصل شأفَةَ عدوهم.

ونذكر ذلك على الترتيب.

فكان أول ذلك وصول الفرنج إلى ثَغر دمياط ورجُوعهم عنه.

وكان وصُول الفرنج، خذلهم الله تعالى، إلى ثغر دمياط في صفر سنة خمس وستين وخمسمائة، فحاصروا الثّغر. وكان سببُ ذلك أنّ أسد الدّين شيركوه لمّا ولي الوزارة للخَليفة العَاضد لدين الله خافَهُ فرنج السّاحل، فكاتبوا أهْل صقليّة والأندلس من الفرنج يستمدُّونهم ويخبرونهم أن أسد الدّين قد مَلَك الدّيار المصرية، وأنهم لايأمنونه على البيت المقدّس. فأمدُّوهم بالمال والرّجال والسّلاح، فنازلوا دمياط وضيّقوا على أهلها، فأرسل الملك النّاصر إليهم العساكر براً وبحراً، وكتب إلى الملك العادل نور الدّين الشّهيد بذلك، ويعرّفه أنّه لايمكنُه الخروج من القاهرة لأنه لايأمن أمر الشيعة وأنهم يثورون بعده، فيبقى الفرنج أمامه والمصريون خلفه، فأمَده نُور الدّين بعسكر، وخرج نورُ الدّين بنفسه إلى بلاد الفرنج للإغارة عليها؛ فاستبَاح أموالها، لخلُوّ البلاد السّاحلية منهم، فلمّا بلغهم ذلك رجعُوا إلى بلادهم بساحل الشام بعد مقامهم على دمياط نيّفاً وخمسين يوماً، ولم يظفروا منها بشيء. وأخرج العاضدُ للملك النّاصر في هذه الغَزَاة ألف ألف دينار مصرية، سوى الثياب والأسلحة.

ذكر غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة

وفي سنة ستّ وستين وخمسمائة سار الملكُ النّاصر عن القاهرة وأغار على أعمال عسقلان والرّملة، وهجم على ربض غزّة فنهبه. وأتاه ملك الفرنج في قلّة من العسكر ليردّه، فهزمه الملك النّاصر بعد أنْ أشرف على أسْرِه، وعاد إلى القاهرة، وعمل مراكبَ مفصّلة ونقلها على الجمال إلى البحر، فجمع قِطَعها وشدّها، وألقاها في الماء. وحصر أيلة برّاً وبحراً، وفتحها في العشر الأول من شهر ربيع الآخر، واستباح أهلها ومافيها؛ وعاد إلى الدّيار المصريّة.

ذكر محاصرة الشوبك وعوده عنها

قال المؤرخ: وفي صفر سنة سبع وستين توجّه الملكُ النّاصر إلى حصن الشّوبَك ونازله، وحصَره، وضيّق على مَنْ به من الفرنج. ودام القتال، فطلب أهله الأمان، واستمهلوه إلى عشرة أيام فأجابهم إلى ذلك، ثمّ بلغه أنّ الملك العادل نور الدّين جاءمن دمشق إلى الشوبك من الجَانب الآخر، فخاف أنّ نور الدّين متى ملك الشوبك قَبَض عليه، فعاد إلى الدّيار المصرية، وكتب إلى نور الدّين يعتذرُ بمرض أبيه بمصر، فقبل عُذره ظاهراً، ووقعت الوحشة بينهما باطناً.

ذكر وصول[اسطول] صقلية إلى ثغر الإسكندرية وانهزامه

كانت هذه الحادثة في سنة سبعين وخمسمائة، ولم يكُن للملك النّاصر بها غزاةٌ بنفسه ولامباشرة للحرب، وكان سببُ وصول هذا الأسطول إلى الثّغر ماقدّمناه من مُكاتبة المصريين الذين صلبهم صلاحُ الدّين الفرنج، فوصل من صقلية مائتا شيني تحمل الرجال، وست وثلاثون طريدةً تحمل الخيل، وستّ مراكب تحمل آلة الحرب، وأربعون مركبًا تحمل

الأزواد، وفي المراكب من الرجال: خمسُون ألفاً ومن الفرسان ألف فارس وخمسمائة فارس، وكان المقدَّمُ عليهم ابنُ عمّ صاحب صقليّة، فوصلوا إلى الثغر في السّادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة، فخرج إليهم أهلُ الثّغر بعُددهم وأسلحتهم، فمَنعهم المتَولى عليهم، وأمرهم أنْ يقاتلوا مِنْ وراء السّور، وطلع الفرنج إلى البرّ ونَصَبوا الدبَّابات وقارَبُوا السّور؛ وقاتلهم أهلُ البلد قتالاً شديداً. وجاء إلى الإسكندرية مَنْ كان إقطاعه بالقرب منها.

وكتب إلى الملك النّاصر بذلك؛ فتجَّهز بنفسه؛ وقدَّم من يُعْلم أهلَ الثَّغر بوصوله، وكان أهل الثغر قد أنكوْا في الفرنج، وقتلوا وجَرحوا كثيراً منهم، وحرقوا الدّبابات.

ولمَّا علم الفرنج بمَقْدَم الملك النّاصر جنَحوا إلى الهرب، وأخذتهم سيُوف أهل الثَّغر، وحرقوا بعض مراكبهم، ونهبوا خيامهم، وأخذوا سلاحهم؛ وكثُر القتلُ فيهم، وهرَب مَنْ بقي؛ واحتمى ثلاثمائة من الفرسان على تل، فقاتلهم المسلمون طوال الليل إلى ضحى الغد، فأخذوا بين أسيرٍ وقتيل.

ذكر مسيره إلى عسقلان وغيرها وانهزام عسكره وعوده

وفي سنَة ثلاثٍ وسبعين وخمسمائة، خرَج الملك النّاصر إلى غزّة وعسقلان.

وكان رحيله من القاهرة بعد صلاة الجُمعة لثلاث ليالٍ خَلْون من جُمادى الأولى من السنة، فوصَل إلى عسقلان في يوم الأربعاء لليلةٍ بقيت من الشهر، فسَبَى وسَلب، وضرب أعناق الأسرى؛ وتفرَّق عسكره للإغارة على الأعمال.

ثـمَّ سار إلى الـرَّملة في يـوم الجُمعـة مستهلَّ جُمادى الآخـرة، فاعترضـه الفرنـج وقد جمعـوا جموعاً كثيرة؛ فكـان بينهما وقعةٌ عظيمـة استشهد فيهـا أحمد ولدُ الملـك المظفر تقي الـدّين[عمـر]، وأسِر ولدُه الثّاني شـاهنشاه، وأقـام في الأسرسبـع سنين حتى افْتَكّـه السّلطـان بمالٍ كثير، وأسِر الفقيـه عيسى الهكّاري.

ثم كانت على المسلمين، وذلك أنّ العساكر كانت قد تعبأت للحَرب، فلما قارَبَهم العـدو أراد بعض الأمراء أن ينقـل الميمنة إلى الميسرة، والميسرة إلى القلـب، فلمّا اشتغلوا بهذه التعبئـة هجـم عليهـم الفرنـج، فـانكسروا وطلبُوا الـدّيار المصرية. وضلُّـوا في الطريـق. وعادَ السّلطان ومَـنْ معه إلى القاهرة في يوم الخميس منتَصف الشهر.

ذكر وقعة مرج عيون وانهزام الفرنج وأسر ملوكهم

كانت هذه الـوقعة في يوم الأحد لثمان خَلون من شهـر المحرم سنة خمسٍ وسبعين وخمسمائة؛ وكـان الفرنـج في عشرة آلاف مقـاتـل. فلمّا التقوا مـع المسلمين انهزم ملكهـم مجروحـاً عنـد اللقاء، وأُسر منهـم جماعـة، منهـم: مقـدَّم الدَّاويـة. ومقدَّم الأسبِتَـارية، وصـاحـب طبريّة، وأخـو صاحـب جبيل، وابن القـومصيّة، وابن بارزان صـاحب الرّملة، وصـاحب جينين، وقسطِـلان يافـا، وابن صـاحب مـرَقيّـة وعدّة مـن خيّالـة القدس وعكّـا وغيرهم من المقـدَّمين والأكابر، زادت عدّتهم على مـائتين وسبعين، سوى غيرهم، فنقلهم السّلطان إلى دمشق.

فأمّا ابنُ بارزان فإنَّه بـذَل في نفسه مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار صوريّـة، وإطلاق ألف أسير مـن المسلمين، والتزم بفكاك الفقيـه عيسى الهكـاري، وأما ابـنُ القومصيـة فافتكتـه أمُّه بخمسـة وخمسين ألف دينـار

صوريّة. وأما مقدَّم الداويّة فإنّه هلك، فطلبت جثته بإطلاق ألف أسير من مقدَّمي المسلمين.

قال: وفي هذا اليوم ظَفِر الأسطول المصريّ ببَطسَةٍ كبيرة للفرنج، فاستولى عليها وعلى أخرى، وعاد إلى الثّغر بألف أسير، والله أعلم.

ذكر هدم بيت الأحزان

كان الفرنج قد عمروا حصن بيت الأحزان في مدّة مُقام الملك النّاصر على بعلبك واشتغاله بأمرها؛ فبَنَوه على مخاضة بيت الأحزان، وبينه وبين صَفَد وطبريّة نصف يوم.

وكان في بنائه ضررٌ عظيمٌ على المسلمين، فبذَل لهُم الملك النّاصر في هَدْمه مائة ألف دينار، فأبَوْا ذلك. فجَّهزَ إليه الجيش، فوصل إلى المخاضة يوم السبت لإحدى عشرةَ ليلةً بقِيَت من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين، والحِصْنُ مبنيٌّ دُونها من الغرب. فَنَصبُوا عليه المجانيق بعد العصر من يوم الأحد، فما جَاءَ الليل إلاَّ وقد استَوْلَوا على الباشُورة. ثم أدار حَوله النُّقُوب،فاستمَّرت إلى يوم الخميس، لِست بقين من الشهر، فهُدم الجدار، ودَخَل العسكر الحصْن وغَنِموا مافيه؛ فكان ماغنمُوه من أنواع السّلاح الجديدة مائةَ ألف قطعة؛ وأسروا سبعمائة أسير، ومن أسرى المسلمين مائة. ثم هُدِم الحصن إلى الأسَاس، وكان سمكُه عشرة أذرع.

قال: ولمَّا عمر الفرنج بيت الأحزان قال النشو أحمد الدّمشقي:

هلاكُ الفرنج أتى عاجلا
وقد آن تكسير صُلْبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفُها
لما عَمَرت بيت أحْزانها

ذكر مسير الملك الناصر إلى بلاد الأرمن

وفي سنة ستّ وسبعين وخمسمائة، توجَّه الملكُ النّاصر إلى بلاد الأرمن، وذلك أن ابن لاوون ملك الأرمن كان قد اسْتَمال قوماً من التُّركمان، فلمّا أتوه وهم آمنون أسَرهم. فدخل الملكُ النّاصر إلى بلاده واستولى على قلعة تُعرف بالمناقير، وهَدَمها إلى الأساس، وأخذ مافيها من الآلات، ووَجد المسلمون في أرضها صهريجاً مملوءاً من الآلات الذهب والفضّة والنحّاس، فبذل ابنُ لاوون جُملة من المال، وأنّه يُطلق الأسرى، ويشترى خمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويطلقهم، فأجابه السّلطان إلى ذلك، وأخذ رهينةً عليه. ثمّ عاد إلى الدّيار المصرية، وأقام بها إلى سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة.

ذكر مسيره إلى الشام والإغارة على طبرية وبيسان وماكان من الظفر بمراكب الفرنج ببحر عيذاب

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة توجّه السّلطان الملكُ النّاصر لقَصد الشام عند وفاة الملك الصّالح بن الملك العَادل نور الدّين، فأغار على طبريّة وبَيْسان في العشر الأوسط من شهر ربيع الأوّل، فانتصر بعْدَ قتال.

وفيها كان الظفر بالفرنج ببحر عيذاب، وذلك أنّ البرنس صاحب الكرك عمل أسطُولاً بالكرك، ونَقَل قِطَعه إلى بحر أيلة وألْقَاها في البحر، وشحنَها بالمُقاتلة، فساروا في البحر وافترقوا فرقتين: فرقة حصرت أيلة، وفرقة توجَّهت إلى عيذاب، وأفسدوا السواحل، ونهبوا، وأخذوا ماوجدوه من المراكب الإسلامية ومَنْ فيها من التُّجار، وجاءُوا على حِين غَفْلة، فرأى الناس مالم يعهدوهُ، فإنّ هذا البحر لم يَرَ النّاسُ فيه فرنجياً قطُّ، ولاتاجراً ولا مقاتلاً قبل هذا الوقت.

وكان الملكُ العَادِل ينوب عن أخيه الملك النَّاصر بالدّيار المصريّة، فعمر أسطولاً وجَهّز فيه جماعَةً من المسلمين، ومقدَّمهم حُسام الدّين لؤلؤ الخاص، فسارُ في طلبهم. وابْتَدأ بالمراكب التي على أيلة، فظفِر بها، وقتل بعض من فيها وأسر بعضهم. وتوجَّه لوقته بعد ظَفَره بهم إلى الذين توجَّهوا إلى عيذاب، وكانوا قد عَزَموا على الدّخول إلى الحجاز وأخْذِ الحاج، والدُّخول بعد ذلك إلى اليمن، فوصل لؤلؤ إلى عيذاب فوجَدَهم قد نهبوا ماجدوه بها وتوجَّهوا، فسَار في إثرهم، فبلغ رابغ والحوراء. فأدركهم بها، وأوقع بهم. فلمّا تحققّوا العَطَب خرجوُا إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب، فنزَلَ من مراكبه وقاتلهم في البرّ أشدّ قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هُناك فركبها، وقاتلهم، فَظفِر بهم وقَتل أكثرهم؛ وأسَر مَنْ بقي، وأرسل بعضهم إلى مِنَى ليُنْحروا بها عُقوبةً لهم على قَصدهم البيْتَ الحرام. وعاد إلى مصر ببقية الأسرى، فقُتلوا.

ذكر الإغارة على الغور

قال:ولمّا ملك الملكُ النّاصر حلب عاد إلى دِمَشق، ثم رحل منها في ثامن جُمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وخمسمائة فنزل على بيسان، فوجد أهلها قد ارتحلوا عنها، فنهبها العسكر النّاصري وتقوَّوا بما فيها، وحرَقُوا مالم يمكنهم أخذُه. وسار بهم حتى أتى الْجَالوت، وهي قريةٌ عامِرَةٌ وعندها عينٌ جارية، فعبّأ أصحابه عندها للقتال، ورحَل إلى الفُولة، ووقع القتال بينه وبين الفرنج، وكان الظَّفر له، ثمّ عاد إلى دمشق، فوصل إليها في يوم الخميس الرّابع والعشرين من جمادى الآخرة من السّنة.

وتوجّه إلى الكرك في هذه السَّنة، وعاد.

ثمّ جمع العساكر المصريّة والحلبيّة وغيرها، وقَصد الكرك في سنة ثمانين

وخمسمائة، وهي الدّفعة الثانية؛ فجمع الفرنجُ فارِسَهم وراجِلَهم للذَّبِّ عنها، ففارقها السلّطان، وجهَّز طائفة إلى نابلس فنهبوها وعادوا إليه.

ذكر غزوة الكرك والشوبك

وفتح طبرية ومجدل يابا ويافا

قال العماد الأصفهاني في البرْق الشامي: وفي سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة بَرَزَ الملك النّاصر من دمشق في أول المحرّم، في العسكر العرمرم، ومضى بأهل الجنّة لجهَاد أهل جهنم، فلمّا وصل إلى رأس الماء أمَر الأفضل بالمُقام عندَها ليجتمع عندَه الأمراء الواصلون من الجهات، وسار السّلطان إلى بُصرى، ثمّ منها إلى الكرك، ورَعى الزُّروع، وقَطعَ الأشجار، ثمّ سار إلى الشوبك وفَعَل مثلَ ذلك، ووصل إليه العسكر المصري ففرَّقه على قلْعَتَي الكرك والشوبك، وأقام إلى أن انْقضى من السنّة شهران، والملكُ الأفضل مقيمٌ برأس الماء، وقد اجتمعت عنده العساكر، فتقدّم إلى سريّة منهم بالغارة على أعمال طبريّة، فانتهوا إلى صَفّوريّة، فخرج إليهم الفرنج فقاتلوهم، فكان الظفر للمسلمين، وهلك مقدّم الأسبتار؛ وعادُوا إليه فكانت مقدّمة النّصر المبين.

وانتهت البشائر إلى الملك النّاصر وهو بِنَواحي الكرك والشوبك، فسار بمن معه في يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول، وعَرضهم في اثْنَي عشر ألف فارس، وعَزم على دُخول السّاحل، فانْتهى إلى ثغر الأقحوانة فاجتمعت الفرنج في زُهاء خمسين ألفاً، ونزلوا على مَرْج صَفّوريّة بأرض عكّا، فلم يتقدّموا عنها، فتقدّم السُّلطان إلى الأمراء أن يُقيموا في مقابلتهم، ونزل هو بمَن معه من خواصّه على طبريّة، وشرع في نقب سُورها، فهدموه في ساعة من نهار، وامتنعت القلعة بمن فيها.

فلّما اتّصل بالفرنج فتحُ طبريّة تقدّموا، وذلك في يومْ الخميس ثالث

شهـر ربيع الآخـر، فترك السّلطان على طبريّـة من يحفـظ قلعتها، وتقـدّم بالعسكر، فـالْتَقَيا على سَطْح جبل طبريّة الغرّبي منهـا،وحالَ بينهما اللّيل، فباتـا إلى صبيحة يـوم الجمعة، فتصادمـا بأرض قريـة اللّوبيـا؛ واستمرّت الحرب بينهما إلى الليل فكانت من أعظم الحُروب. ثمّ باتا إلى صبيحة يوم السّبت، فالْتَقَيا.

فلّما عايـن القومص أنّ الدائرةتكـون على طائفته هـرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وسار نحو صُور، فتبعـه جماعة من المسلمين، فنجا بمفرده، ثمّ انهزمـت طائفة أخـرى فتبعها أبطـال المسلمين، فلم ينج منهـا واحد، واعتَصمت الطّـائفة الأخـرى بتلِ حطّين، فضـايقهم المسلمـون، واشعلوا حولَهم النّيران، فقتَلهـم العطش، فـأُسِر مقدَّمهـم، وقُتل البـاقون، وألقـى عليهم الخِذلان.

قال القاضي أبو المحاسن بن شداد: لقَـد حكى لي مَن أثِق به أنّه لقي بحوران شخصاً واحداً ومعه طُنُبُ خيمة فيه نَيّفٌ وثلاثون أسيراً.

وأمّـا القومـص الذي هـرب فإنـه وصـل إلى طرابلـس، وأصابـه ذات الجنب، فأهلكه الله.

قـال: وبَات السُّلطـان بـالمنزلـة، ونَزل يـوم الأحـد على طبريّة وتسلّـم قلعتها في بقيّة يومه، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

قال: ولمّا يسر الله هـذا الفتح كتـب السّلطان إلى أخيـه الملك العـادل سيـف الدّيـن بمصر يُبشره به، وأمـره بالمسير إلى بـلاد الفرنـج من جهـة مصر بمَـنْ بقي عنـده مـن العساكـر، ومحاصرة مـايليـه منها؛ فسـارع إلى ذلك، وسار ونازل حَصْن مجدل يابا وفتحه، وغنـم مافيه، ثم سار إلى يافا وفتحها عنوةً، وقتل وسبى وأسَر وغنم .

ذكر فتح عكا، ونابلس، وحيفا، وقيسارية، وصفورية والنّاصرة، ومعليا، والفولة، والطور، والشّقيف، وغير ذلك

قال ابن شداد: ثمّ رحل السّلطان طالبًا عكّا، وكان نزوله عليها في يوم الأربعاء سَلْخَ شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وثمانين، وقاتلها بُكرة الخميس مستهل جُمادى الأولى، فأخذها، واستَنْقَذَ من كان فيها من الأسارى، وكانوا زهاء أربعة آلاف؛ واستولى على مافيها من الأموال والذّخائر.

ثم تفرّقت العساكر في بلاد السّاحل فأخذوا نابلس، وحَيفا، وقيسارية، وصفُّورية، والنّاصرة، ومعليا، والفُولة، والطوُّر، والشقيف وقلاعاً تلي هذه كثيرة؛ وكان ذلك لخلوها من الرّجال، فإنهم عمّهم القتل والأسر.

ذكر فتح تبنين وصيدا وصرفند وبيروت وجبيل

قال: ثم أرسل السلطان ابن أخيه تقي الدين إلى تبنين فضايقها، وكتب إلى السلطان أن يأتيه بنفسه، فوصَل إليها ونازَلها يوم الأحد الحادي عشر من جُمادى الأولى، فسأل مَنْ بها الأمان واستُمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم، وأطلقوا الأسارى، فخرجوا إليه، فسُرَّ بهم وكَسَاهم، وخلص في تلك السنة من الأسرى أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة ألف.

قال: ثم رحل السّلطان من تبنين إلى صَيْدا، فاجتاز في طَريقه بصَرَفَنْد فأخذها بَعْد قتال.

ثم سار إلى صَيْدا، ففارقها صاحُبها وتركها خالية، فتسلّمها ساعة وصوله إليها لِتسعٍ بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين.

وسار من يومه نحو بيروت فقاتل أهلها على سُورها وظنُّوا أنهم قد قَدَروا على حفظه، فدخلها المسلمون من الجانب الآخر، فسألوا الأمان فأمنَّهم على أنفسهم وأموالهم، وتسلّمها في التاسع والعشرين من الشهر.

وأما جُبَيْل فكان صاحبُها في جملة الأسرى الذين نُقِلوا إلى دمشق، فسأل إطلاقه وتَسْليمها، فأحضره مقيّداً، فسلّم البلد وأطلق أسرى المسلمين، وأطلقه السّلطان.

ذكر فتح عسقلان ومايجاورها

قال: وسَار السّلطان إلى عَسْقلان، والرملة، وغزة، والدّاروم، وغير ذلك.

فَنَزل على عَسْقلان في يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، ونصبَ عليها المجانيق، فسلّموها على خروجهم بأموالهم سالمين؛ وذلك في يوم السبت سلخ جمادى الآخرة.

ثم تسلّم حصُون الدَّاويَّة وهي:غزّة، والدّاروم، والرّملة، ويبنى، وبيت لحم، ومشهد الخليل، ولدّ، وبيت جبريل.

قال: وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمسٌ وثلاثون سنة، فإن العدّو استولى عليها في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة.

قال العماد: وفوّض السّلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع المناصب الدينيّة بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين عبد الله بن عمر الدّمشقي، وهو المعروف بقاضي اليمن.

obeikandl.com